التصوف في مصرعصر الدولة المملوكية

أ.م.د. فائز علي بخيت

جامعة الموصل / كلية العلوم الإسلامية

المقدمة:

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على ظاهرة التصوف التي انتشرت بشكل واسع بين فئات المجتمع المصري وفي أثناء العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، ولاسيما القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي الذي أطلق عليه (قرن التصوف) وذلك لأسباب عدة منها وصول الكثير من مشايخ التصوف إلى مصر منهم الحسن الشاذلي وأحمد البدوي وأبي القاسم القباري ، فضلا عن الأسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فعلى الصعيد السياسي تمثل بظهور التتار والصليبيين في الشرق أمّا على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي فتمثل بسوء الأحوال المعاشية وكثرة المجاعات والأوبئة ، لذا اتجه الفقراء نحو التصوف معتقدين أن فيه خلاصهم وأمنهم من تلك الأوضاع المتردية آنذاك ، وتبيين الدراسة أيضا موقف سلاطين المماليك من التصوف الذين أبدوا تعاونهم معهم كبناء الأماكن وتخصيص الأوقاف لهم للاستفادة منهم في تثبيت حكمهم في مصر ، كما وضحت الدراسة آداب الصوفية كالسمو الأخلاقي والزهد وغيرهما .

نشأة التصوف:

يعد مفهوم التصوف من المفاهيم الغامضة والمركبة التي اختلف حولها الباحثون والعلماء فلا تكاد تذكر كلمة تصوف أو متصوفة حتى تثار علامات الاستفهام متى ظهرت؟ والى أي الأديان ترجع؟ وماذا تعني؟ والإجابة على هذه الأسئلة تنوعت وتضاربت طبقا لمذاهب أو ظروف العلماء والفقهاء، وبعد القراءة عن التصوف تبين أن هناك تعاريف عدة تدور حول محاور ،القسم الأول اعتمد على الاشتقاق اللغوي، وأما القسم الأخر فكان ذو طابع نفسي في حين ركز القسم الثالث على سلوك وأفعال المتصوفة[١]

لقد اختلف المؤرخون حول التاريخ الدقيق للبدايات الأولى للتصوف الإسلامي، علماً أن هذه الكلمة لم تكن معروفة قبل الإسلام، ولم تذكر على لسان الرسول الكريم محمد(صلى الله عليه وسلم)ولم ترد في القران الكريم ،إلا أن هذا اللفظ ظهر مفرداً في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/القرن الثامن الميلادي حيث أطلق على رجلٍ يقال له(أبو هاشم الصوفي الكوفي)إذ كانت هذه التسمية تطلق على المتصوفة من أهل الكوفة،كما أنشئ أول مكان للصوفية في مدينة الرملة في بلاد الشام، عندما خرج أمير المدينة ذات يوم للصيد فشاهد شخصين وجلس معهما فسر الأمير من حسن أخلاقهما وحسن معاملتهما ،فأمر الأمير ببناء مكان لهما، وعرف هذا المكان فيما بعد باسم (الخانقاه) الذي كان تؤدى فيه أعمال دينية وثقافية واجتماعية ،ويبدو من هذا الأمر أن الاسم لم يكن معروفا" في عهد السلف الصالح إنما المعنى موجود في كل منهم أما ألان يوجد الاسم ولا يوجد المعنى الحقيقي لهذا الخلق [٢]

لقد كان التصوف من المظاهر الدينية في مصر في العصر المملوكي ،ومن المعروف أن التصوف الإسلامي ظهر في مصر منذ نهاية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي وظل تصوفاً فردياً[٣] حتى قيام الدولة الأيوبية في مصر على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٣-١١٨٧م الذي أهتم بالتصوف لسببين الأول: الوقوف بوجه المد الفاطمي، أما الثاني:فهو جهادي للاستفادة من أهل التصوف بالدعوة إلى مقاتلة الصليبين،وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الناصر صلاح الدين إلا أن التصوف ظل هادئاً قليل الأثر في المجتمع المصري ، ولاشك أن العالم الإسلامي في عهد المماليك بوجه عام أحاطت به أحوال قاسية منها هجوم التتار من الشرق، والنصارى الغربيين من أوربا ،في حين ظل الصليبيون قابعون في منطقة الشرق يمثلون خطراً مباشراً على البلاد الإسلامية، وفي المقابل لم يحاول بعض الحكام إيجاد الحلول المناسبة لمثل هكذا أوضاع، فالمماليك في مصر وبلاد الشام ظلوا منفصلين عن أهل البلاد ناعمين بالثروة وحياة الترف [٤] مما أدى إلى انتشار المظالم نتيجة الصراع على السلطة فأصبح أغلب المصريين أثناء الحكم المملوكي فقراء معدومين بسبب انتشار البطالة والمجاعات والخرافات ولذلك استغل الحكام ظاهرة التصوف لتوطيد حكمهم،فكانت هذه العوامل سبباً رئيساً في التمهيد لوفود الكثير من مشايخ الصوفية إلى مصر في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[٥] من المغرب والأندلس كابي الحسن الشاذلي[٦] والسيد احمد البدوي[٧] واحمد الرفاعي وغيرهم[٨]

إن هؤلاء الوافدين الذين نمت بهم الصوفية في مصر جاءوا ليجدوا مجتمعاً متهيئاً نفسياً وعقلياً مما ساعد على تقبل أفكارهم[٩] إذ لقي أسلوبهم قبولاً كبيراً بين الناس، فوجدوا عامة المصرين في كمد بسبب سطوة المماليك واستبدادهم ، وكثرة الفتن وفقدان الأمن فضلا عن كثرة المجاعات والأوبئة مما حفز الكثير من الدخول تحت لواء مشايخ الصوفية وليس معنى ذلك أن المصريين لم يكن لهم عهد بالتصوف قبل عصر سلاطين المماليك ،فهناك اصطلاحات ألفاظ استعملها الصوفية في عصر سلاطين المماليك كانت مستخدمة منذ العصر الفاطمي[١٠]

اشتهر العصر المملوكي بالتصوف أكثر من غيره من العصور إلى حد أطلق تسمية(قرن التصوف) على القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي الذي قامت به الدولة المملوكية التي سعت إلى إشغال الناس عن التفكير في سوء أحوال البلاد ،وقد انعكست ملامح تلك الفترة المتشائمة على أدعية وأذكار الصوفيين لذا امتلأت عباراتهم بالمفاهيم السوداوية التي تصور أحوال البلاد السيئة من ناحية وتثبت في نفوس الأتباع ما يحض على الصبر من ناحية أخرى[١١]وفي الحقيقة هناك عوامل ساعدت على انتشار التصوف وتطوره وفق مزاج خاص وطابع مميز في ذلك العصر، ومنها أن الفقراء وجدوا في التصوف أمنا لحياتهم اليومية أكثر من الفلاحين وأصحاب الحرف الأخرى وما ذاقوه من مظالم (المماليك الجلبان)[١٢] (والقرانيص)[١٣] في آن واحد فضلاً عن الضرائب التي كانت تفرض عليهم واضطراب الحياة الاقتصادية التي سببت لوناً من التفكك الاجتماعي والانحلال الخلقي، مما أدى بالتالي إلى توجه الناس إلى حياة التصوف هروباً من الواقع المرير[١٤] في حين ذكر الزيدي أن سبب انتشار التصوف في العصر المملوكي أن عامة الناس آمنوا بالصوفية لأنهم استطاعوا أن

يخلصوهم من مشاكلهم وقضاء حوائجهم في زمن كثرت فيه المفاسد وانتشر فيه الفقر بين الناس فضلاً عن حدوث الكوارث من أمراض وقلة المياه ،وبذلك أصبح التصوف ملجأً للمصريين للخلاص من شرور الدنيا وتقرباً إلى الله لينجيهم من العذاب[١٥] وقد أدت هذه النفسية القابلة للتصوف إلى أن لا تحصر الصوفية في نفسها وأشخاصها بل أنها تسربت إلى العقول وتغلغلت في النفوس على نطاقٍ واسعٍ حتى وصلت إلى أناس ليست لهم علاقةً مباشرة بأي مذهب، فانطلقوا يتصرفون في حياتهم بوعي أو دون وعي وكأنهم من أتباع الطرق الصوفية المخلصين،وبذلك ساعدت طبيعة الصوفية على هذا الانتشار بين أفراد المجتمع المصري[١٦]

فضلاً عن ذلك فقد شعر الناس في المنطقة وخاصة أهل مصر بمدى عجز حكامهم في معالجة الأوضاع المزرية وبذلك شاعت روح التقوى السلبية والتدين العاطفي الهروبي،وتجسيد هذا كله في انتشار الصوفية الجاهلة من الدراويش وكراماتهم المزعومة على إنها من حقائق التاريخ [١٧] في حين أن بعض الصوفية تطرف في ارآئه وأفعاله،فنشأ عن هذا التطرف طائفة أطلق عليها اسم(المجاذيب)أو(الدراويش) [١٨] وقد أشار ابن خلدون الى أولئك الدراويش قائلا((**ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون من العقلاء،وهم مع ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين**)) [١٩]

إن من أبرز الظواهر الدينية التي عرفتها مصر في عصر سلاطين المماليك انتشار ظاهرة التصوف [٢٠] الذي يمثل نوع من السمو الروحي والأخلاقي إلا أن تلك الصفة تحولت إلى وسيلة يمتهنها بعض الناس، وخاصة عندما دخل بعض العوام والأدعياء والدجالين من الأميين والجهلة واتخاذهم أماكن التصوف وسيلة للعيش ،إذ تحولت الحياة الصوفية النقية إلى الفساد نتيجةً لتصرفات البعض منهم ،وهذا ما اغضب شيوخهم حيث أنهم ثاروا على الشيخ جلال الدين السيوطي سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م لأنه رأى فيهم سلوكاً غير أخلاقي ونبههم إلى ضرورة الالتزام بأخلاق الإسلام والامتثال إلى حياة التقشف والزهد [٢١]

وهناك أمر يجب ذكره وهو ما يتعلق بطبيعة المجتمع الذي أنتج هذه المكونات أو ساعدها على القيام والاستمرار فإذا كانت الصوفية ظاهرة قد وجدت في أغلب الأديان والمذاهب فأن وجودها في بعض الأماكن بكثافة دون أخرى هو أمر يسترعي الانتباه ،والصوفية التي ظهرت بالمجتمع الإسلامي ذاتيا أو تأثراً بالأديان والفلسفيات الأخرى لم تنتشر وتتوزع بشكل متساوي فالبعض تقبلها والبعض الأخر رفضها،إلا أن المجتمع المصري يعد أكثر المجتمعات التي فتحت الأبواب لمشايخ الصوفية للدخول إلى مصر

انقسمت الصوفية في العصر المملوكي إلى فرقتين في تلك الحقبة لكل فرقة شيخها وشعارها فالطائفة الاحمدية نسبت إلى شيخها احمد البدوي وشعارها اللون الأحمر والرفاعية نسبت إلى احمد الرفاعي وشعارها العمائم السوداء[٢٢] ويذكر ابن عاشور في حالة موت شيخ طائفة يخلفه خليفته في رئاسة طائفته، وقد جرت العادة في عصر سلاطين المماليك أن تصدر تولية هذا الخليفة من السلطان وينزل من القلعة في حفل كبير يحيط به سائر فقراء طائفته [٢٣]

استخدمت الصوفية بعض المصطلحات الخاصة بهم مثل (روح الأعظم) وهي العقل الأول ،(وروح المضاف) وهي النفس الزكية الكلية ،(والرياضة) وهي تهذيب الأخلاق النفسية،في حين أطلقوا على أنفسهم مصطلح (الفقراء) لأنهم عدوا الفقر شعار الصالحين وهو من الأمور الضرورية أذا ما أراد الوصول إلى منتهاه لان المرء أذا شغل نفسه بزوج أو مسكن وملبس أو مال سيطرت هذه الأشياء على ذهنه وحجبت نفسه عن الخير الحقيقي الثابت وهو الانشغال بالآخرة[٢٤] وبذلك ارتبط كل فقير بشيخه فيأخذ طريقته وأوامره ويلبسه خرقة التصوف وعندئذ تصبح العلاقة بين المريد وشيخه كما صورها ابن عاشور قائلاً:((**إن المريد مع شيخه على صورة الميت ،لا حركة ولا كلام ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بأذنه ولا يعمل شيء إلا بأذنه ،من زواج أو سفرٍ أو خروجٍ أو عزلةٍ أو مخالطةٍ وغير ذلك...**)) [٢٥] في حين بالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر سلاطين المماليك على مريديهم أن لا يحق له التصرف في ماله وزوجته ونفسه [٢٦] وفي المقابل كان المريد شديد الالتزام بتعاليم شيخه ويخضع له كلاماً وحركاً ورأياً وفكراً وبذلك أصبحت العلاقة بين المريد وشيخه وطيدة ويستمر حتى نهاية عهده بل وبعد الموت لذلك حرص كثير من الصوفية (المريدين) على أن يدفنوا بجوار شيوخهم[٢٧] ومن التنظيم لدى الصوفية هو تقدم المريد ليصل إلى درجة النقيب فالخليفة الذي يصل إلى المشيخة فيقوم بجمع المريدين ليعطيهم تعاليمه وهذا يمكنهم من اتخاذ قرافات(مدافن) خاصة بهم أحصنوها بأسوار حتى لا يشاركهم فيها أحد غيرهم[٢٨] ما دامت الشروط التي أوصلته إلى مرتبة الشيخ متوفرة فيه يبقى له الحق أن يشتري المريد ويتصرف فيه تصرف السيد والعبد،وعلى المريد أن يبيع نفسه وان يسلم قلبه له تسليماً، وان يتخلص من حوله وقوته وإرادته إلى حول الشيخ وإرادته، فبهذا الأمر أصبح الشيخ الأب الروحي لكل من تعاهد معه من المريدين إلى الوصول إلى الله تعالى[٢٩] ولا يمكن التعرض على التنظيم الصوفي دون التطرق لدور الشيخ المحوري داخل الطريقة لاسيما إذا كان هو مؤسسها ،فالشيخ هنا يحمل كل سمات القائد المثالي فذلك يؤسس طريقته على مبدأ الولاء والتفاني من قبل مريديه وأخذ الدراويش والمريدين بكل صفات من حيث الهيبة والجلال والعلم والحلم والقدرة على تذليل كل صعبٍ وتيسير كل عسيرٍ والتحلي بكل ما يقرب من الكمال والمثالية ويصف احد المؤرخين السيد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية قائلاً:((ما رؤى الشيخ الكبير وهو يأكل الطعام ولا هو نائم وما كان احد يعرف مكان نومه ولا مزح مع أحد وما مازحه احد، وما كان يتكلم من غير سبب ولا موجب وما كان احد أن يتكلم معه أو يكلمه من غير سببٍ لما عنده وعليه من الجلالة والمهابة)) [٣٠] ونظراً للمكانة التي يحتلها الشيخ في نفوس وعقول مريديه فإن غيابه يترك لديهم فراغاً كبيراً لا يعوضه أي شيءٍ أخر، وخير دليل على ذلك ما ورد على لسان احد المريدين قائلاً: ((أصبحت كاليتيم لما توفى شيخي لقد كان لشيخي أحوال عجيبة وأعمال فوق النواميس)) [٣١]

ومن هنا نجد أن الشيخ يلعب دوراً محورياً في الطريقة الصوفية ويؤثر تأثيراً واقعياً هائلاً في المجتمع المصري المملوكي ،وهذا يعطي تصوراً واضحاً لدى سلاطين المماليك لذلك اهتموا اهتماماً كبيراً بالتصوف الذي انتشر في مصر آنذاك.

ومن هنا يمكن القول أن التنشئة الدينية عند الصوفية كانت قائمة على تلقين الشيخ للمريدين بجميع القيم والمفاهيم العامة للتصوف عن طريق الاقتداء به وأتباع كل تعاليمه وينتمون إليه،إذ أنهم دأبوا في أول عهدهم بالتصوف أن يلتقوا بشيخهم في داره أو في المسجد غير أنه ما أن دخل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

حتى باتت لهم مباني خاصة يقطنها أفراد الجماعات الصوفية ويحل بها عابرو السبيل، فيجدون فيها المأوى والطعام الذي يسد رمقهم [٣٢]

لقد قامت حياة الصوفية على أساس التقشف في الملبس والمأكل حتى بالغ بعضهم في لبس المرقع من الثياب، وصبروا على الجوع والعطش والتقليل من كثرة الكلام وقلة العمل وغير ذلك من أركان الحياة إذ كان قوته الجوع ومطره الدموع ووطره الرجوع ' مما أدى ذلك إلى تطرف بعض الصوفية في أفعالهم وأرائهم فنشأت طائفةً أطلق عليها (الدراويش أو المجاذيب) الذين عرفوا بتصرفاتهم الغريبة مثل حلق رؤوسهم ولحاهم ورموشهم وحواجب أعينهم ،وزعموا أن ذلك من التقوى والعبادة [٣٣] وممن غالوا في هذه التصرفات طائفة من الصوفية سمية(بالقلندرية)[٣٤] التي كانت لها أفعال خاصة بأتباعها فكان يركب الواحد منهم في قفص على رأس حمالٍ ويتعمم ويعمل حركات غريبة زاعماً أنها من الدين ،في حين تصرف آخرون بركوبهم على قطعة خشبٍ بعد أن ينحت لها وجهاً وعينين وأنفاً وفماً يمسك بيده سوطاً ويسير في شوارع القاهرة بهذه الصورة المضحكة وهو يضرب دابته الخشبية[٣٥] ومنهم يوضع في أذنيه حلقاً ويرفع الأعلام على رأسه،وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الطائفة قائلاً :((ومن هؤلاء من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء،وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين)) [٣٦] وبذلك طلب السلطان من الفقهاء أن يصدروا فتوى تلزمهم بعدم حلق لحاهم وشواربهم ولبس زي المسلمين وترك زي الأعاجم والفرس ولا يسمح لهم بدخول بلاد السلطان إذ لم يطبقوا تلك التعليمات [٣٧]

غير أن الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها أن مثل هذه التصرفات التي يقوم بها هؤلاء ليس لها صلة بالدين ولا بالتقوى وان دل ذلك على شيء فإنما يدل أنهم يحاولون خداع الناس بإسم الدين وأنهم أشخاص لهم مقدرات لا يمتلكها غيرهم ، فضلا عن ذلك أنهم ارادو من هذه الحركات جمع المال بأسهل الطرق.

<u>سلاطين المماليك والتصوف</u>:

إن تاريخ العلاقة بين الصوفية والسلاطين مليء بالمواقف والمفارقات التي تظهر بشكل جلي مدى حرص كل منهما على جذب الآخر لتحصيل منفعة متبادلة وفيما يخص السلطان الأمر الذي يتعلق بحقه الشرعي والحفاظ عليه والاستقرار في منصبه وأشارت بعض المراجع الغربية إلى اهتمامهم بالتصوف لإعطاء أنفسهم الحق الشرعي في حكم مصر، ويتضح ذلك من خلال سياساتهم التي كانت لها أبعاد سياسية واقتصادية أكثر مما هي روحية[٣٨] أما بالنسبة إلى المتصوفة فقد ربطهم مصالح مادية واجتماعية وحظوة كبيرة لدى الحكام ،لذلك استغل سلاطين المماليك الصوفية في تدعيم سلطانهم والترويج لهم عند الناس، لذا فقد كان الدعم الكبير الذي قدمه بعض السلاطين للصوفية كبناء أماكن ليسكنوا بها وتوفير جميع احتياجات تلك الأماكن والتي تمثلت بالطبيب الذي يعالج مرضاهم والزيت الذي يضئ قناديلهم والبواب الذي يمنع من لا أخلاق له من دخولها والطباخ الذي يطهي لهم طعامهم والرشاش الذي ينقل الماء للأدوار العلوية والسفلية والخدام الذين ينظفون ويرتبون والقراء الذين يقرؤون القرآن الكريم والوعاظ وخازن الكتب والمؤذن والخطباء والأئمة،وهذا الترف الذي عاشه هؤلاء الصوفية حنق بعض أدباء تلك الفترة فكتب يقول:

يا أهل خانقة الصلاح أراكم------ مابين شاك للزمان وشاتم

يكفيكم ما قد أكلتم باطـــــــــلاً------ من وقفها وخرجتم بالسالم[٣٩]

لقد أراد سلاطين المماليك من الدين ورجاله ستار لهم حتى يقربهم إلى قلوب الناس[٤٠] ،إذ كان السلطان بيبرس يقرب المشعوذين والدراويش وكذلك السلطان سيف الدين قلاوون وسار على نهجهم سلاطين المماليك يستخدمون مشايخ الصوفية من أجل أغراض سياسية لذا بحثوا عن رجال الدين ومنهم هؤلاء المشايخ الذين يطوعون لهم النصوص القرآنية لتتفق مع مسلكهم في الحكم من أجل تعبئة الناس حولهم لتحقيق أهدافهم السياسية والاجتماعية من خلال الدين [٤١]

الصوفية المصرية لم تقف عند حد الزهاد والمتنسكين بل أصبحت لها أعوان وقادة ومشايخ فادى هذا التوسع إلى إقامة علاقات سياسية واجتماعية فبذلك تحولت هذه العقيدة الروحانية إلى منهج تطبيقي في الواقع المعاشي،ولهذا اهتم سلاطين المماليك بالتصوف وساعدوا أصحاب التصوف على الاستمرار بهذا النهج ،وهذا يعطي انطباعا عن سياسة المماليك من اجل تثبيت حكمهم بشكل شرعي لهم، متخذين من التدين الصوفي أداة في مواجهة التدين الحركي المعارض لحكمهم وقد قادهم هذا إلى مشاركة عامة الناس في الاعتقاد في الصوفية والعطف عليهم،بل أنهم أعطوا اهتماماً خاصاً لمشايخ الصوفية بعدهم الواجهة الأساسية للتصوف إذ كان السلطان بيبرس من أشهر سلاطين المماليك الذين نهجوا هذا المنهج فكان يقدس السيد البدوي وينزل لزيارته في مدينة طنطا شخصياً ويقبل قدميه ،وكان يكرم أيضاً الشيخ (خضر بن موسى المهراني) الذي تنبأ له بالسلطة وخاصة عندما قتل الملك المظفر قطز إذ قربه منه وبنى له زاوية بجبل المزه وأخرى في بعلبك وثالثة في حماة ورابعة في حمص وخصص لها وقفاً سنوياً بلغ نحو ثلاثين ألف درهم ،وكان السلطان يزوره كل أسبوع مرة أو مرتين يطلعه على غوامض السلطنة، ويستشيره في أموره الشخصية ولا يخرج عما يشير به عليه ،وكان يأخذه في أسفاره، وأطلق يده في السلطنة،إلا أن هذه العلاقة الودية لقيت معارضة من قبل بعض الناس لعدم قناعتهم أو لامتلاكهم مأرب أخرى وخاص الشعراء، ووصف احدهم هذا الوضع قائلاً:

ما الظاهر السلطان إلا------- مالك الدنيا بذاك السماء

لنا الملاحم تخبـــــر ------- ولنا دليل واضـــــــــح

كالشمس في وسط السماء------ ولكل عين تنظـــــــر

لما رأينا الخضر يقدم جيشه------ أبدا علمنا أنه الاسكندر

إلا أن العلاقة الودية تحولت إلى عدائية بسبب طمع شيخ الصوفية بالتحف التي أرسلها مالك اليمن إلى السلطان بيبرس لذلك أمر بدوره بسجن الشيخ ،فضلا عن شكوى له بعض الناس من فسقه وارتكابه أفعالاً سيئة ،إلا انه لم يلبث أن أفرج عنه وهو في دمشق إلا أن وصول البريد حال دون ذلك بسبب موت الشيخ خضر[٤٢] واستمر دعم سلاطين المماليك للصوفية في مصر حتى عهد السلطان برقوق كان يوزع الأموال على الصوفية وعلى الخانقاه التي أنشأها بل أن احد الأمراء أراد أن يغلق مطبخ الخانقاه بسبب انحسار ماء النيل، فشكا له

المتصوفة من هذا الإجراء،فأمر السلطان بالنظر في هذه المسألة وقال له أن يعمل بشرط الواقف وعند وصول الأمير يلبغا السالمي لحل المشكلة اجتمع بشيخ الصوفية (سراج الدين عمر البلقيني) والذي أفتاه بشرط الواقف وقال له أن الخانقاه يجب أن تكون وقفا للمتصوفة سواء القاطنين في القاهرة أو الواردين من بلاد الشام فأن لم يوجد كانت للفقراء من الفقهاء الشافعية والمالكية الاشعرية الاعتقاد[٤٣]وفي موقف أخر يتضح عن مكانة التصوف في السياسة المملوكية إذ لجاء السلطان برقوق إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية أكمل الدين البابرتي ليصلح بين اثنين من أمرائه نشب بينهما نزاع فاستطاع الشيخ أن يبرم صلحاً بينهما ويخمد الفتنة[٤٤] أما في عهد السلطان قايتباي فقد حظيه الصوفية باهتمام كبير كان السلطان يجل احتراماً وتقديساً للسيد احمد البدوي، إذ انه قام بتجديد مقامه وتوسعته فكان يغدق الأموال على أصحاب الطرق الصوفية،أما السلطان الظاهر خشقدم يعطي من الأوقاف ،ويأمر القضاة بقراءتها فضلا عن ذلك كان يشارك المتصوفة في الذكر ويقيم لهم مواكب في قصره ويأمر أمراؤه أن يلبسوا الصوف ويخرج في شوارع القاهرة في مواكب حافلة ،فضلاً عن ذلك كان يقرب مشايخ الصوفية منه[٤٥]

لقد كان لزوجات السلاطين وبناتهم دور واضح في الاهتمام في التصوف إذ كانت بنت السلطان بيبرس تذهب إلى دور الصوفية لتعليم النساء أمور دينهن [٤٦] بل الانتماء له ،فضلاً عن زوجة السلطان خشقدم خوند شكرباي الاحمدية التي غلب عليها التصوف، فاتبعت الطريقة الاحمدية وانتسبت أليها، والأكثر من هذا أنها كانت تقوم بزيارات إلى ضريح السيد احمد البدوي بطنطا وأشار المقريزي إلى أنها عندما ماتت لم يغط نعشها ببش خاناه على عادة الخوندات بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء وجعل أمام نعشها أعلام أحمدية وذلك بوصية منها[٤٧] حيث أنها لازمت اللواتي تصوفن في الزوايا والأربطة التي كانت المسئولة عن تلك الدور شيختهن التي تلبس الصوف للمرأة التي تتوب على يدها وتدخل حياة التصوف مثلما يفعل مشايخ الصوفية [٤٨] ويعلق ابن عاشور على هذه الظاهرة الغريبة في دور التصوف للنساء إنهن يرفعن أصواتهن عند الذكر ومن العجب إنهن عندما يذهبن إلى موضع الذكر لا يسمح لهن بالدخول إلا بعد دفع المبلغ المقرر على كل واحدة منهن إلى (ضامنة المغاني) [٤٩] من أجل حماية عملهن[٥٠]

بل أن ظاهرة التصوف لم يهتم فيها السلاطين فقط بل أن الأمراء اهتموا بالصوفية أيضاً،إذ كان الأمير حسام الدين لاجين (٦٩٥-٦٩٨هـ/١٢٩٥-١٢٩٨م)يحب الجلوس مع الفقراء على مائدة الطعام،كما شرع الأمير شيخو في هدم أملاك ابتاعها وعمر في مكانها خانقاه وحمامين وحوانيت للصوفية ولم يكتف بذلك بل عمل فيها بنفسه ومماليكه وخصص لها وقف من ارض مصر والشام ،وعين فيها فقهاء يلقون دروساً في المذاهب الأربعة وشيخاً للصوفية،واشترط الأمير على الفقهاء والصوفية ألا يتزوج منهم إلا من طائفته وأن يقيم الأعزب بالخانقاه ليلاً ونهاراً [٥١]

وكان لهذا الاهتمام الذي بالغ فيه السلاطين والأمراء في التصوف انعكساً على عامة الناس الذين امنوا إيمانا راسخاً بهم ،لذلك أصبح أهل التصوف في عصر المماليك لهم مكانة سامية بين السلاطين والناس أيضاً إذ أنهم كانوا يدافعون عنهم في حالة الاعتداء عليهم ،حتى وصفوا هؤلاء الفقراء بأنهم ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء وأكد عاشور أن انتشار ظاهرة التصوف والمتصوفة في مصر في عصر سلاطين المماليك كان لها

أثرا خطيراً في الحياة الاجتماعية ،ذلك أنهم صبغوا القيم والمثل العليا بصبغة الزهد والابتعاد عن ملذات الحياةٍ ومتاعها والاتجاه نحو الآخرة والعمل لها، وترتب على هذه الاتجاهات نثر روح الاستكانة والقناعة والتذلل بين عامة الناس فظلت بقاياه في نفوس الكثير إلى أمد طويل[٥٢]

لقد نتج عن انتشار التصوف وكثرة الصوفية في العصر المملوكي إلى انتشار الأماكن الخاصة بهم التي عرفت بأسماء منها الخوانق[٥٣] والربط[٥٤] والزوايا[٥٥] فكانت أول خانقاه أنشئت في مصر في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي وعرفت باسم خانقاه دويرة الصوفية وكان يطلق على شيخها بشيخ الشيوخ[٥٦] وأنشأت من اجل نشر الاعتقاد الصحيح من طقوس وعبادات روحية [٥٧]بعد أن طلب صوفية الخانقاه من السلطان أن يغير شيخها جلال الدين جار الله فتم ذلك وعين الشيخ علاء الدين السراني [٥٨] وقد اشترط صاحبها أن تكون وقفا للفقراء الصوفية فقط ،ومن الشروط الأخرى أذا توفى احد ساكنيها وترك عشرين دينارا فما دونها تعطى لفقراء الصوفية دون تدخل الديوان السلطاني في ذلك [٥٩]

واستمر العمل بهذه الخانقاه إلى أن أسس السلطان محمد بن قلاوون(٦٩٣-٧٤١هـ/١٢٩٣-١٣٤٠م) الخانقاه الناصرية التي أنشأها بجوار قصره بسرياقوس [٦٠] وكان فيها مائة صوفي ورتب لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما تحتاج إليه الخانقاه،كما عمر القصور بالقرب منها وعمل لها بستاناً حمل أليها الأشجار من دمشق وحفر ترع الماء حتى أوصلها إلى الخانقاه فسألهم السلطان عمن يختاروه شيخا لهم بعد وفاة الشيخ مجد الدين موسى الأقصرائى إلا أنهم لم يحددوا أحداً فعين السلطان الشيخ (الركن الملطي خادم المجد الأقصرائى) خليفاً عنه [٦١]وتم فتحها وحضر مشايخ الصوفية والقضاة ومشايخ البلد وألقى الشيخ عز الدين عبد العزيز عشرين حديثاً للرسول (صلى الله عليه وسلم) فأكرمه السلطان وعمل وليمة عظيمة ووزع على الحاضرين مبلغاً من المال ابتهاجا بفتح الخانقاه[٦٢] كما أشار ابن حجر العسقلاني أن أصحاب الخانقاه قدموا شكواهم للسلطان برقوق من شيخهم فأمر بإحضاره وتبين أنه يقوم بأعمال السحر فتم عزله وعين الشيخ شريف فخر الدين[٦٣] وبذلك استمر اعتناء سلاطين وأمراء المماليك بإنشاء تلك الدور والتي أطلق عليها بعض الرحالة ومنهم ابن جبير أسم (المحارس)لغرض الطب والتعبد[٦٤] وخصصوا الأوقاف السخية لها،ومن شروط الدخول إلى هذه الدور أن يكون الأفقر والاحوج للنزول بها ومما يدل على أن هذه الدور قد بدأت تحل محل المدرسة تدريجياً فكثر عددها وخصصت للصوفية وأطلق عليها خوانق وربط وزوايا،ولم يلبث انتشار التصوف أن خلق مبرراً لتحول المدارس إلى دور للتصوف [٦٥] ولقد جرت العادة أيضاً أن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر ممن عرف بصحبة المشايخ وأن لا يتخذ من التصوف حرفةً اعتاد عليها[٦٦]

لقد أثارت كثرة المؤسسات الخاصة بالصوفية دهشة كل من زارها من الرحالة في عصر المماليك فشبهها بعضهم بالملاجئ ،وفي الحقيقة إن هذا التشبيه جاء صادقاً إلى حد ما لأن منازل الصوفية في ذلك العصر لم تكن بيوتاً للعبادة فقط فحسب بل اتخذت في ذات الوقت كمأوى لطوائف المريدين للإقامة فيها ليلاً ونهاراً ،كما أنها أصبحت مأوى لأصحاب العاهات وكبار السن فضلا عن أنها أصبحت مأوى للمطلقات من النساء اللاتي يقومن بدور نسج الملابس من الصوف لأهل التصوف [٦٧]

لم يقتصر اهتمام سلاطين المماليك وأمرائهم على بناء الدور للصوفية،بل تعداه إلى توفير الأوقاف السخية ،ويذكر ابن بطوطة أن سلاطين وأمراء مماليك مصر في القرن الثامن الهجري/السادس عشر الميلادي **((يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاويا بمصر لطائفة معينة من الفقراء٠٠٠ وهم أهل أدب ومعرفة بالتصوف ولها شيخ وحارس))** [٦٨] فعند افتتاح إحدى الزوايا من قبل إي سلطان فأنه يأمر بإقامة حفل كبير يحضره رجال الدين والقضاة ومشايخ الصوفية ويصدر في أثناء ذلك قرار سلطاني من ديوان الإنشاء لتعين أحد رجال التصوف في الزوايا أو الخانقاه ،ويعامل شيوخ هذه الزوايا كل حسب أهمية المكان الذي يتولى مشيختها [٦٩]

لقد كان السلطان معتاد على النزول بين الحين والأخر في إحدى الزوايا لحضور الذكر فيردد معهم ما كانوا يتذاكرون به، ومن ثم يصلي معهم ويقرؤون القرآن وفي نهاية الذكر كان السلطان يوزع عليهم بعض المال ثم يعود إلى القلعة [٧٠] ويبين ابن تغري بردي أن بعض السلاطين يبقى معهم حتى الفجر ويوزع عليهم الأموال التي بلغت أربعة آلاف دينار وتكررهذا لأكثر من عشرين مرة[٧١] ويعلق (Homerim)على أن حضور السلطان إلى الخوانق لم يكن إلا هروباً من مرض الطاعون في أوقات حدوثه لأن تلك الأماكن تعد مأوى روحي لبعدها عن مركز مدينة القاهرة[٧٢] وعلى الرغم من الأوقاف التي خصصت لجميع الزوايا والربط لغرض الإنفاق عليها، إلا أنها كانت مشروطة وقد نصت شروط الوقف لاسيما في مجال النزول بتلك الدور أن يكون عمر النزيل إحدى وثلاثون سنة وأن لا يزيد عددهم أكثر من مئة شخص من المحتاجين فقط كما تعطى الأفضلية لجنود المماليك المتقاعدين، ومن ثم يسمح للفقراء المغتربين، ومن الشروط الأخرى تفضيل الأعزب على المتزوج لكي يكون متفرغاً للعبادة،فضلا عن عدم تغيبهم عن دور العبادة أكثر من ثلاثة أيام في الشهر الواحد فإذا تغيب احدهم لا يقطع لهم فيها طعام ،وأن غاب الصوفي أكثر مما سمح له قطع طعامه، وأعطى لمن هو في الخانقاواه[٧٣] ولم يكن في مصلحة أهل الزوايا والخانقاواه أن يزداد عددهم لأن الوقف ثابت فتؤدي مثل هذه الزيادة إلى انخفاض مستواهم المعيشي لقد أسهم ذلك في ظهور عصبية طائفية بين صوفية الزوايا المختلفة ،ويتضح ذلك بشكل جلي في حالة انتقال المريد من شيخ إلى أخر أو من زاويا إلى أخرى فيتهم بأنه أراد الدنيا ولم يرد الدين ،والذي يمكن ملاحظته من خلال ذلك أن اختلاف الزوايا في المعيشة كان بسبب اختلاف الأوقاف الموقوفة لها[٧٤]

من خلال دراسة نظم الخانقاوات يمكننا أن نستشف أن كل منها كانت وحدة قائمة بنفسها وبداخلها عدد معين من الخلوات التي خصصت كل منها لأحد الصوفية، وألحق بالخانقاه حمام ومطبخ و خزانة للأشربة والأدوية وعين بكل حمام حلاق ومدلك للأبدان وحلق الرؤوس وبذلك تتوفر لأهل الخانقاه الضروريات التي تغنيهم عن الخروج خارج الخانقاه[٧٥] وكانت تخصص لهم المبالغ المالية وتزداد تلك المبالغ في شهر رمضان خاصة وكانت تقدر بثلاثمائة درهم أما في الأعياد فكان يصرف لهم مائتي درهم [٧٦] فضلا عن ذلك خصص طبيب وكحال لعلاج الصوفية ويذكر عاشور أن حجة وقف الغوري (٩٠٧-٩٢٢هـ /١٥٠١-١٥١٦م) نصت على تخصيص طبيب يتقاضى في الشهر خمسمائة درهم، يتفقد مرضى الصوفية، ويصف لكل منهم ما يناسبه من الأدوية [٧٧]ويذكر ابن حجر العسقلاني معلقاً على كثرة الدور المخصصة للصوفية قائلاً أن بعض المساجد حولت إلى أماكن للصوفية ،حيث أن مسجد القاضي زين الدين عبد الباسط ناظر الجيوش تحول بأمر من صاحبه إلى دار للفقراء الصوفية مجهز لهم من الخبز في كل يوم والزيت في كل شهر[٧٨] ولا يعني التحول في

المساجد من حيث البناء والشكل، وإنما فقط التسمية والدليل على ذلك يذكر السخاوي أن السلطان الناصر حسن بن الناصر قلاوون (٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦١م) كان يحضر مع الفقهاء لتدريس الفقه والحديث النبوي الشريف [٧٩]

لقد بلغ مكان أهل التصوف في العصر المملوكي إلى أعلى درجات الثقة المتبادلة بينهما،والدليل على ذلك أن بعض السلاطين كانوا يأخذون المشورة من مشايخ الصوفية في أمور السياسة ،فأصبح لتلك الفئة من المجتمع مكانة مرموقة آنذاك ،ومما يدل على ذلك خروج السلاطين في جنائزهم ،فقد مشى السلطان برقوق في جنازة البابرتي وظل واقفاً حتى دفن ،وحضر السلطان جقمق جنازة ابن حجر وابن عرب،ولم يقف الأمر عند هذا الحد في الاهتمام بل أن سلاطين المماليك انشاؤا الدور الخاصة بهم ،وهذا ما أثار دهشة الرحالة الوافدين إلى مصر في العصر المملوكي[٨٠]

لقد حرص سلاطين المماليك على استمرار العلاقات الودية والطيبة مع مشايخ الصوفية مما أدى بالتالي إلى تدخل مشايخ الصوفية في إدارة الدولة المملوكية ،ولعل الواقعة التي حدثت في عهد أخر سلاطين المماليك وهو السلطان طومان باي الثاني ٩٢٢-٩٢٣هـ/١٥١٦-١٥١٧م عندما تمكن العثمانيون من السيطرة على بلاد الشام وهموا بالزحف إلى مصر التي كانت تعيش حالة من الفوضى الإدارية لاسيما بعد موت السلطان قنصوه الغوري ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م في معركة مرج دابق في بلاد الشام ،ولحسم تلك الفوضى تدخل مشايخ الصوفية فاختاروا السلطان طومان باي سلطانا على مصر إلا انه امتنع عن تولي السلطنة لأن خزائن الدولة المملوكية لا تكفي لتجهيز الجيش وإعطاء الأمراء إلا أنهم ذهبوا إلى شيخ الصوفية أبي السعود ألجارحي واستعانوا به فأحضر وطلب من الأمراء أن يقسموا مجتمعين على طاعة السلطان طومان باي فأدوا يمين القسم وتولى السلطة وخرج لمقاتلة الجيش العثماني في منطقة الريدانية ،ولقد بلغ لمشايخ الصوفية من المكانة والشأن العظيم في الدولة المملوكية ،حيث كان الشيخ ألجارحي تصل إليه الشكاوى المقدمة من لدن الناس ضد بعض الأمراء لسوء تصرفاتهم مع الرعية، فكان الشيخ يبعث إليهم ويقفون إمامه ولا يأذن لهم بالجلوس لما قدمت ضدهم من شكاوى، أما بعض الأمراء الذين لهم سمعة طيبة كانوا يشاركون الناس في بناء الزوايا لمشايخ الصوفية بل أنهم حملوا التراب والطين ،ولم يقتصر الأمر على الأمراء بل تعداه إلى السلطان نفسه ،فعندما توترت العلاقة بين الغوري ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م والشيخ شمس الدين الدير وطي الذي اتهم السلطان بالتقصير في حمل الأمة على الجهاد ،فبعث السلطان إلى الشيخ للحضور إمامه ،فعندما دخل القصر حياه السلطان، إلا أن الشيخ استقبل التحية بالصمت فزجره الدير وطي قائلاً:(إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال للسلطان :وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم قال للشيخ علام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد وليس لدينا مراكب نجاهد فيها فقال الشيخ له عندك المال ٠٠٠ثم طال الجدل بينهما فقال الشيخ للسلطان لقد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان ،ألم تذكر حين كنت نصرانياً ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ورقاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق ،عما قريب يصيبك المرض الذي لا ينجح معه طب ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبراً مظلماً ثم يدسون انفك بالتراب ٠٠٠وبعد تلك المجادلة أرسل السلطان

إلى الشيخ الدير وطي ليسترضيه مقدماً له المال ألا أن الشيخ رفض ما قدم له وحقر تصرف السلطان فما كان اعز من الشيخ وأذل من السلطان في ذلك المجلس)[٨١]

لقد كان اهتمام السلاطين بالتصوف في عصر المماليك له أبعاد عسكرية واجتماعية فعلى الصعيد العسكري أخذت مراتب الصوفية في العصر المملوكي شكل التنظيم العسكري متوافقة مع طبيعة الدولة المملوكية التي كانت دائما مستنفرة في حالة حرب لا تنقطع،أما على الصعيد الاجتماعي فقد حاول سلاطين المماليك معالجة ظاهرة اجتماعية وهي مسألة الفقر في المجتمع المملوكي ،وهذا سوف ينعكس على الواقع السياسي لدى سلاطين المماليك[٨٢]

آداب الصوفية:

لقد كان للصوفية في معيشتهم داخل زواياهم آداب خاصة بهم منها القناعة بالقليل والاختصار على ما لابد منه من حاجات الدنيا من ملبس ومأكل وأنهم اختاروا الفقر على الغنى وإيثار الجوع على الشبع والشفقة على الخلق والتواضع للصغير والكبير والتوجه إلى الله تعالى والانقطاع إليه ويصفهم بعض المؤرخين بأن((أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى وكلامهم كلام الخرقى)) [٨٣] ويذكر (Homerim)عن آداب الصوفية قائلاً:(أن تكون كريما مع الصوفية الذين يسكنون معك) [٨٤] وفي هذا الإطار أطلقت على الصوفية صفات كثيرة منها (الكشفية) و(الجوعية) و(الفقراء) و(الغرباء)[٨٥] فقسم بعض مشايخ الخوانق مريديهم من الصوفية ثلاثة أقسام كهول وشباب وأطفال وخصصوا لكل فئة قسماً خاصاً بحيث لا يختلط أهله بغيرهم ولا يجتمعون إلا يوم واحد في الأسبوع واخذ العهد من الجميع أن لا يثأر احدهم لنفسه أذا اعتدى عليه زميله بل يعفوا عنه ويشكو للشيخ فيفعل به ما يشاء ،حتى بلغ الأمر بهم أن الصوفي أذا جاء أبوه أو أخوه من سفر بعيد فأنه يراه ولكن لا يستطيع أن يسلم عليه إلا بعد موافقة شيخه [٨٦] ويصف ابن بطوطة معيشة أهل التصوف بمصر في عصر سلاطين المماليك قائلا(**إن ترتيب أمورهم عجيب،ومن عوائدهم في الطعام،انه يأتي خادم الزاوية صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام،فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل واحد خبزه ومرقه في إناء على حدا، لا يشاركه فيه أحد، وطعامهم مرتان في اليوم،ولهم كسوة في الشتاء وكسوة في الصيف،ومرتب شهري من ثلاثين درهما للواحد في الشهر إلى عشرين٠٠٠**) [٨٧] وعلى ما يبدو أن أغلب أهل الزوايا من الصوفية هم غير متزوجين أما المتزوجين منهم إذ أصبحوا صوفية فلهم زوايا خاصة بهم ويشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية،ومن الأمور التي يلتزم بها أن يجلس كل واحد منهم على سجادة خاصة به وإذا صلوا الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك [٨٨] ومن آداب الصوفية أيضاً عندما يخرجون يوم الجمعة يسيروا في موكب معهم الخادم يحمل لهم سجاجيدهم وبعد الانتهاء من الصلاة ينصرفون مجتمعين ومعهم شيخهم [٨٩] وأثناء عودتهم إلى مكانهم يبدأ الدخول برجله اليمنى وأما من أراد أن يدخل الخلاء يبدأ برجله اليسرى إلا أنهم يبالغون في هذه الأشياء وخاصة في تطبيقها [٩٠]

ومن عاداتهم مع الشخص الغريب انه عندما يأتي بباب الزاوية ويحمل معه سجادته وبيمنه عصاه وبيساره إبريقه يخرج إليه خادم الزاوية ويسأله من إي بلاد أنت وهل نزلت في زاوية غير هذه ومن شيخه، فإذا تأكد من صحة قوله أدخله الزاوية ،وفرش له سجادته في موضع يليق به ويصلي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر

ويقعد معهم[٩١] ،في حين شددت بعض الزوايا في أسلوب التعامل مع الشخص الغريب فيخرجون إليه بعض الشبان ليؤذونه بالشتم والسب ويتعدى الأمر إلى ضربه وكسر كل ما يحمل من أمتعة ،فإذا يئسوا من غضبه سمحوا له بالدخول،ويعللون ذلك بضرورة التأكد من حسن خلقه وتحمله للأذى وكظمه للغيظ ،فإذا غضب منهم لا يدخلونه الزاوية،وفي حالة السماح له بالدخول إلى الزاوية أن لا يسلم على احدٍ ولا يسلم عليه أحد خوفاً من أن يكون على غير وضوء،فإذا توضأ وصلى ركعتين يأتي إليه أهل الزاوية كي يسلموا عليه ويتكلمون معه ولا يخلو كلامهم في الغالب من التنميق والتزكية[٩٢] ويصف المقريزي بعض دور التصوف بأنها كانت على درجة كبيرة من الالتزام والاحترام والمواظبة في تأدية العبادات بشكلها الصحيح [٩٣] ومن مبادئ الصوفية التأكيد على تعظيم التماسك داخل دور الصوفية ابتدأ من المريد وحتى شيخ المشايخ إذ يلتفت الجميع ويتعهدوا بحفظ الصوفية ووجودها[٩٤] ومن اجل المحافظة على وحدة التصوف آنذاك كان يجب على المريد أن لا يعترض على شيخه لأنه مرهون برضاء شيخه ،وكذلك لا يجوز له الزيادة في الأوراد[٩٥]إلا بإذنه كما يحرم على التلميذ أن يأخذ ذكراً من أحدٍ غير شيخ طريقته،فضلاً عن ذلك لا يجوز للمريد أن يخبر أحدٍ عن رؤيا منامه أو واقعة كشفية إلا لشيخه[٩٦].

على ما يبدو إن حياة التصوف التي نشئوا عليها لم تستمر بشكلها الطبيعي، إذ تغيرت أواخر عصر سلاطين المماليك فتغير وضعهم من الصلاح إلى الفساد، وتخلوا عن النظم والآداب التي عرفوا بها بين الناس فأصبحت أذكارهم تلقى بصوت مسموع وبشكل جماعي فأطلق عليها السماعات ،ولم تلبث أن أصبحت الشابة والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك الأذكار، فإذا اندمج المتصوف حرك رأسه،ثم أذا اندمج أكثر ذهب حياؤه ووقاره فيقوم ويرقص ويبكي وينادي ويبسط يديه ويرفع رأسه كأنه جاءه المدد ويخرج الرغوة من فمه ويمزق ثيابه ويعبث بلحيته[٩٧] ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوز إلى الأخلاق السيئة بل إن شيخ الخانقاواه أو الزوايا هو الذي يبدأ بهذه الأفعال القبيحة إذ يجمع في مجلسه أراذل الناس من المتصوفة وأصحاب المغاني والملاهي ،ومنهم من اعتاد على اخذ أموال الوقف ليصرفها في اللهو والخمر بشكل علني،بل إن بعضهم استحضر المرد في مجالسهم وزينوهم بالحلي والصبغات وزعموا أنهم أرادوا الاستشهاد على قدرة الله والاستدلال بالصنعة على الصانع فضلا عن ذلك اخذوا يتعاطون الحشيش الذي ساد بين الصوفية حتى نسب إليهم تسمية(حشيشه الفقراء) [٩٨]

وفي الحقيقة أن انتشار الفقر واليأس و ظلم الحكام في أواخر العصر ألمماليكي أدت إلى الكثير من الناس التوجه إلى حياة التصوف، فلذلك ضمت الخوانق والربط والزوايا كثير من المتصوفة الذين لم يقبلوا على هذه الحياة رغبة في الانقطاع للدين وإنما فراراً من قسوة الحياة ورغبة في الهناء دون العناء ،وهكذا اخذ الصوفية يحيون حياةٍ مترفة بالنسبة لبقية الناس إذ لا شك في أن الدنيا شغلت أذهانهم لذلك انصرفوا عن الذكر والعبادة إلى البحث عن المال والمتاع في ظل الأوقاف الواسعة التي تمتعت بها تلك الدور التي يسكنها المتصوفة ،حتى وجدوا من الصوفية من ارتبط بأكثر من خانقاه طمعاً في المال،لذلك استنكر كثير من المعاصرين لتلك الظاهرة السيئة التي ألت إليها الصوفية، إذ أن السلطان خشقدم منع كثير من الصوفية من عمل مالا يجوز في زواياهم ، ولكن جهود السلطان ذهبت إدراج الرياح[٩٩] وهكذا تطور أمر التصوف حتى أصبحوا على قول المقريزي (**لا ينسبون إلى علم ولا ديانـة والى الله المشتكى**)[١٠٠]

في الحقيقة أن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التي عاشها المجتمع المصري ،كانت تقف وراء انحراف التصوف عن خطه الصحيح، فضلاً عن المؤثرات الخارجية التي دخلت على التصوف في العصر المملوكي والتي تمثلت بفلسفات الأمم الأخرى .

الهوامش:

(١) للاطلاع على تعاريف التصوف بمحاوره الثلاث،ينظر،عمار علي حسن،الصوفية والسياسة في مصر(القاهرة،١٩٩٧م)ص٣١-٣٢.

(٢) إحسان الهي ظهير،التصوف المنشأ والمصادر(القاهرة ،٢٠٠٥م)ص٤٣-٤٦؛عبد الجليل حسن عبد المهدي،المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي دورهما في الحركة الفكرية(عمان:١٩٨١م):١٩٤/٢.

(٣) يذكر أن أول من غرس بذور التصوف في مصر هو ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥هـ ويعد أول من تكلم من الصوفية في علوم المقامات والأحوال ،للمزيد ينظر:عبد الرحمن السلمي،طبقات الصوفية،تحقيق،نور الدين شريبان(القاهرة:١٩٥٣م).

(٤)سعيد عبد الفتاح عاشور،المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك،(القاهرة:١٩٦٢م) ،ص١٦٢ .

(٥) مجدي عبد الرشيد بحر،القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م(مصر:١٩٩٩م)ص٢٨٨-٢٨٩.

(٦) الحسن الشاذلي:ولد الشاذلي سنة ٥٩٣هـ بقرية غماره المغربية في مدينة سبته ونشأ وتعلم القرآن الكريم والحديث الشريف على يد كبار علمائها،وتوفى سنة ٦٥٦هـ،للمزيد من التفاصيل ينظر، عامر النجار،الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها ط٥(القاهرة،د-ت)،ص١٢٤.

(٧) احمد البدوي:ولد في مدينة فاس سنة ٥٩٦هـ ثم هاجرت عائلته إلى مكة وبعد مكوثه حقبة من الزمن قررا لرحيل إلى العراق وعاد كرة أخرى إلى مكة ومنها توجه إلى مصر سنة ٦٣٥هـ ووافته المنية هناك سنة ٦٧٥هـ للمزيد عن حياته،ينظر،النجار،الطرق الصوفية والسياسة،ص١٠٢-١٢٣.....

(٨) احمد الرفاعي:ولد سنة ٥١٢هـ بقرية حسن بأم عبيدة التابعة إلى مدينة واسط في العراق وسيد احمد الرفاعي نسبة إلى جده السابع رفاعة وتوفى سنة ٥٧٨هـ،للمزيد من التفاصيل عن حياته ينظر،النجار،الطرق الصوفية،ص٦٣-٧٤

(٩) المعروف عن مصر منذ الفراعنة معروفة بنزعتها الدينية العميقة وهذا ما جعلها تتقبل الدعوة الصوفية،للمزيد ينظر،حسن ،الصوفية والسياسة،ص٤٩.

(١٠) عاشور،المجتمع المصري،ص١٦٢-١٦٣،العصر ألمماليكي في مصر والشام(القاهرة:١٩٧٦م)،ص٣٥٢، حسن،الصوفية والسياسة،ص٤٩، النجار،الطرق الصوفية ،ص٥٣.

(١١) حسن،الصوفية والسياسة،ص٨٩.

(١٢) مماليك الجلبان : وهم من الرقيق البالغين الذين دخلوا إلى أراضي الدولة المملوكية أما سرا فيضطر السلطان للموافقة على دخولهم،أو دخلوا بشكل رسمي عن طريق استدعاء السلطان لهم،للمزيد ينظر:فائز علي بخيت وفتحي سال حميدي،المماليك الجلبان ودورهم في الأوضاع الداخلية للدولة المملوكية٦٧٨-٩٢٢هـ/١٢٧٩-١٥١٦م،بحث منشور في مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية الموصل:٢٠٠٩م)،ص١-١٥ .

(١٣) القرانيص: وهم مماليك السلاطين القدامى الذين توفوا أو قتلوا وتعد من اشد فرق المماليك السلطانية خطورة وقوة،للمزيد ينظر:إحسان عباس،تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك(بيروت:١٩٩٨م)،ص٣٨.

(١٤) عرب حسين دعكور،تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك (بيروت:٢٠١١م)،ص٤٨٢،النجار،الطرق الصوفية،ص٩٧.

(١٥) الزيدي ،العصر الإسلام.

(١٦) حسن،الصوفية،ص٥١٢.

(١٧) قاسم عبده قاسم،عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي(القاهرة،٢٠٠٧م)ص٢٠٦.

(١٨) عاشور،مصر في عصر دولة المماليك البحرية(القاهرة،١٩٥٩م)ص١٨٧.

(١٩) عبد الرحمن ابن خلدون،مقدمة ابن خلدون،تحقيق،احمد جاد الحق(القاهرة،٢٠٠٧م)ص١١٣.

(٢٠) لقد عرفت مصر التصوف منذ العصر الفاطمي إلا انه كان غير منشرا بشكل واسع في مصر، للمزيد ينظر،الزيدي،العصر الإسلامي،ص٢٤٧.

(٢١)دعكور،تاريخ الفاطميين ،ص٤٨٠.

(٢٢)عاشور،مصر، ص١٨٦.

(٢٣) محمد بن احمد ابن إياس ،بدائع الزهور في وقائع الدهور،(مصر:١٨٩٤م):٧٨/٣ ؛عاشور،مصر،ص١٨٦-١٨٧ .

(٢٤)عبد الله محمد بن محمد الفاسي ابن الحاج،المدخل(بيروت:١٩٩٥م)١٤/٣؛ حسن،الصوفية والسياسة،ص٦١ ؛عاشور،مصر،ص١٨٧.

(٢٥) المجتمع المصري،ص١٦٤ ؛العصر ألمماليكي،ص٣٥٢؛الزيدي،التاريخ الإسلامي،ص٢٤٨.
(٢٦) ابن الحاج،المدخل،٢٠٧/٣ ؛عاشور ،العصر ألمماليكي،ص٣٥٢ .
(٢٧)عاشور،المجتمع المصري،ص١٦٥؛الزيدي،التاريخ الإسلامي،ص٢٤٨ .
(٢٨) الزيدي،التاريخ الإسلامي،ص٢٤٨ .
(٢٩) حسن ،الصوفية،ص٨١ .
(٣٠) حسن،الصوفية،ص٧٩ .
(٣١) حسن،الصوفية،ص٨٢ .
(٣٢) حسن ،الصوفية والسياسة،ص٦٥ .
(٣٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،٢٩٥/٩؛عاشور،المجتمع المصري،ص١٦٦؛العصر ألمماليكي،ص٣٥٢-٣٥٣؛الزيدي،*التاريخ الإسلامي،ص٢٤٨* .
(٣٤) القلندرية: طائفة تنتمي إلى الصوفية ويطلق عليها ملامتية أيضا،وحقيقة القلندرية أنهم قوم تركوا التقيد بآداب المجالس والمخاطبات وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض،للمزيد عن حياتهم ينظر،تقي الدين أبي العباس احمد المقريزي،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية،تحقيق:خليل المنصور(بيروت،١٩٩٨م)٣١١/٤.
(٣٥)عاشور ،المجتمع المصري،ص١٦٦ .
(٣٦) ابن خلدون،المقدمة،ص١١٣ .
(٣٧) إسماعيل بن عمر بن كثير،البداية والنهاية (بيروت:د ت):٢٧٤/١٤ .
(٣٨) TH.Emil Homerim , The khangah and the sufi Duty in mamluk,lands(The university of chicaco,mamluk studies review,١٩٩٩)vol.lll.p.٧٠.

(٣٩) المقريزي،خطط،٢٨٣/٤ ؛حسن،الصوفية والسياسة،ص٨٩.
(٤٠) عاشور،العصر ألمماليكي ،ص٣٤٨-٣٤٩؛عبد المهدي،المدارس:١٩٦/٢.
(٤١) حسن ،الصوفية والسياسة،ص٨٥-٨٦ ؛ Homerim , The khangah and the sufi .vll.lll.p.٦٥
(٤٢) حسن ،الصوفية والسياسة،ص٨٩-٩٠.
(٤٣) المقريزي،خطط،٢٨٣/٤-٢٨٤.
(٤٤) ابن تغري بردي،النجوم،٦٠٠/٥ ، ؛دعكور،تاريخ الفاطميين،ص٤٨٢ .
(٤٥) الحافظ ابن حجر العسقلاني،إنباء الغمر بأبناء العمر،تحقيق:حسن حبشي(القاهرة:١٩٩٤م)٥٣٨/٣ ؛محمد بن محمود الحلبي بن أجا،العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك،تحقيق محمد احمد الدهمان،(دمشق:١٩٨٦م)ص٢٠٧.
(٤٦) Homerim , The khangah and the sufi vll.lll.p.٦٧.
(٤٧) المقريزي،السلوك،٢٦٩/٢؛ ابن تغري بردي،النجوم،٨٠٩/٧ ؛عاشور،المجتمع المصري،ص١٣٩ .
(٤٨) عاشور،المجتمع المصري،ص١٣٩ .
(٤٩) وفي فترة انحطاط الحكم المملوكي ابتدع المماليك مورد للمال أطلقوا عليه ضمان الغواني وهي ضريبة تدفعها الضامنة عن البغايا التابعين لها،للمزيد ينظر،احمد عوف،أحوال مصر من عصر لعصر من الفراعنة إلى اليوم(القاهرة:د،ت)ص٨٤ .
(٥٠) وفي فترة انحطاط الحكم المملوكي ابتدع المماليك مورد للمال أطلقوا عليه ضمان الغواني وهي ضريبة تدفعها الضامنة عن البغايا التابعين لها،للمزيد ينظر،احمد عوف،أحوال مصر من عصر لعصر من الفراعنة إلى اليوم(القاهرة:د،ت)ص٨٤ .
(٥١) المقريزي، السلوك،٢١٩/٤ ،٣٣٣/٦.
(٥٢) المجتمع المصري،١٦٨ .
(٥٣) خوانق: كلمة فارسية معناها البيت وقد ظهرت في الإسلام في حدود القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ،وانشيء أول خانقاه في مصر في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي والتي أصبحت مركزاً لتعبد الصوفية،للمزيد ينظر،حياة ناصر الحجي،صور من الحضارة الإسلامية في سلطنة المماليك (الكويت:١٩٩٢م)ص١٦٠ .
(٥٤) الربط: كلمة عربية الأصل تعني أقامة الحامية عند ثغر العدو ثم أصبحت بعد ذلك لإيواء الزهاد والمنقطعين من أماكن بعيدة.ألحجي،صور من الحضارة،ص١٦٤ .
(٥٥) الزوايا: أنشأت في الأصل ملحقاً بالمسجد ولكنها تطورت إلى أبنية صغيرة للعبادة ولسكن الصوفية،ألحجي،صور من الحضارة،١٦٢س .
(٥٦) عز الدين بن علي بن إبراهيم بن شداد،تاريخ الملك الظاهر،تحقيق:أحمد حطيط(بيروت:١٩٨٣م):٩٤/٣١؛ المقريزي،الخطط،٢٨٢/٤ .
(٥٧) Homerim , The khangah and the sufi.vll.lll.p.٦٥.
(٥٨) المقريزي،السلوك،٣/٥ .
(٥٩) حياة ناصر ألحجي ،السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده(الكويت:١٩٨٣م)ص١٢٦ .
(٦٠) سرياقوس، بلدة في نواحي مدينة القاهرة،ينظر،شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي،ط٢(بيروت :١٩٩٩٥م)،ص٢١٨ .
(٦١) المقريزي،السلوك،٣١٤/٣ .
(٦٢) زين الدين عمر بن مظفر ابن الوردي،تاريخ ابن الوردي،ط٢(بيروت،١٩٩٦م) ٢٩٦/٢.
(٦٣) أنباء الغمر،١/٤٣٧.
(٦٤) محمد بن احمد بن جبير،رحلة ابن جبير(بيروت،٢٠٠٣م)ص٣٣؛وينظر، Homerim , The khangah and the sufi.vll.lll.p.٦٥ .
(٦٥) عاشور ،المجتمع المصري،ص١٦٨؛العصر ألمماليكي،ص٣٥٣ .

(٦٦) عاشور،العصر ألمماليكي،ص٣٥٢ .
(٦٧) زكي مبارك،التصوف والسياسة،٣٥٧/١ ؛عاشور ،المجتمع المصري،ص١٦٨، ١٧٣ .
(٦٨)محمد بن عبد الله اللواتي ابن بطوطة،رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في عجائب الأمصار،تحقيق،طلال حرب،ط٤(بيروت،٢٠٠٧م)،ص٧٩.

(٦٩) القلقشندي،صبح الأعشى،٣٧٠/١١ ؛عاشور ،المجتمع المصري،١٧٠ .
(٧٠) ابن حجر،أنباء الغمر،١٣٥/٢ ،عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٠ .
(٧١) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة ، ١٧٤/٢؛ابن حجر،أنباء الغمر،١٣٥/٢ ،عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٠ .
(٧٢) The khangah and the sufi . vll.lll.p.٧٠.
(٧٣) عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧١؛العصر ألمماليكي،ص٣ ؛ Homerim , The khangah and the sufi ,vll.lll.p.٦٨.
(٧٤) زكي مبارك،التصوف والسياسة،٣٥٩/١ ؛ عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧١ .
(٧٥) المقريزي،الخطط،٢٨٥/٤؛ عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧١ .
(٧٦) الحجي،السلطان الناصر،ص٨٥ .
(٧٧) عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٢ .
(٧٨) أنباء الغمر،ا/٥٠٧؛ إبراهيم علي طرخان،مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة(القاهرة،١٩٦٠م)ص٣١٦-٣١٧ .
(٧٩) شمس الدين محمد بن عبد السخاوي ،وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام،تحقيق:بشار عواد معروف وآخرون(بيروت:١٩٩٥م):٨١/١-٨٢ .
(٨٠)حسن،الصوفية والسياسة،ص٩١ .
(٨١)حسن،الصوفية والسياسة،ص٩١ -٩٢.
(٨٢) حسن،الصوفية والسياسة،ص٧٠ .
(٨٣) حسن،الصوفية والسياسة،ص٣٢ .
(٨٤) The khangah and the sufi.vll.lll.p.٧٠.
(٨٥) حسن،الصوفية والسياسة،ص٣٢ .
(٨٦) عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٢ .
(٨٧) ابن بطوطة،رحلة ابن بطوطة ،ص٥٦.
(٨٨) ابن بطوطة،رحلة ابن بطوطة ،ص٥٦؛عاشور ،المجتمع،ص١٧٢ .
(٨٩) المقريزي و الخطط،٢٧٤/٤ ابن بطوطة،رحلة ابن بطوطة ،ص٧٥؛ Homerim , The khangah and the sufi

(٩٠) ابن الحاج،المدخل،١٤٥/٣، ١٤٦.
(٩١) ابن بطوطة،رحلة ابن بطوطة ،ص٧٥؛ابن الحاج،المدخل،٣/ ١٤٥ ،١٤٦ .
(٩٢) عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٣.
(٩٣) المقريزي ،الخطط،٢٩٤/٤ ؛ عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٣.
(٩٤) حسن،الصوفية والسياسة،ص٧٥.
(٩٥) الأوراد: يقصد بها هنا الإرادة هي أن يلقي التلميذ بنفسه بين يدي شيخه ويسلم له قياده ويكون بين يديه كالميت بين يديه الغاسل يقلبه كما يشاء ولا يعترض عليه بقلبه ولا بلسانه ويسلم كل ما يراه منه ولو كان على غير ظاهر الشرع،للمزيد،ينظر،حسن،الصوفية والسياسة،ص٨١. .
(٩٦) حسن،الصوفية والسياسة،ص٨١. .
(٩٧) المقريزي ،الخطط،٢٩٤/٤ ؛ ابن الحاج،المدخل،١٠٤/١ ؛عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٤.
(٩٨) المقريزي ،الخطط،٢٠/٣ ؛عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٤.
(٩٩) عاشور ،المجتمع المصري،ص١٧٤.
(١٠٠) المقريزي،الخطط،٢٧٢/٤،ص١٧٤.

Abstract

This study aims to draw the light on the suffusion which thrum gaily among the Egyptian and during the slave century A.D ١٥١٧-١٢٥٠/٩٢٣-٦٤٨ A.H and other wise especial the seven Higra the thirteen A.D which called with many reason like arrive the many the old lasawif to masia among them Al-Hassan Al-Ahmed Al- Badawi and abul-kassim Al-kabary ,In spite of the economic ,social and political reasons on the political side which called shown Al-tatter and Al-Sallibien on eastern ,but on the economic and social side which acts the bad living circonmistant and bad starvation during that time so the poor human being on Al- Tasawif ,this study shown the Sal lateen from Al- Tasawif who start the helping with him such as the places building and specialist of their Ralls in Egybits ,this study shows as the mineral and asceticism and others.